

المسار النقدي والإبداعي عند عبد الملك مرتاض

- دراسة في النشأة والمنهج -

أ. فرعون بخالد¹

تتبع صعوبة تحديد المسار الإبداعي و النقدي عند عبد الملك مرتاض ، من كونه لم يتحدد كمشروع ثابت ومكتمل في الزمان والمكان ، فعلى ضخامة الإحجاز الفكري الذي حلقه النقد الكتب حتى الآن ، فإنه لا يزال يهتور المزيد من التصورات والمفاهيم داخل حقله النظرية النقدية العربية في توجهاتها الحديثة .

و المتتبع لما وصل إليه المسار النقدي عند عبد الملك مرتاض ، يدرك أن هذه الكتابة أصبحت على قدر من الثراء الذي يجعلها تعد إبداعا و ابتكارا جديدين هذا الطابع الذي يمنح المسار النقدي لفتاحه على المستقبل، ومراجعتنا المستمرة لما نُجزه حتى الآن من مفاهيم وطروحات نقدية ، يجعل الإحاطة بهذه التجربة صعبة في غاية الصعوبة والتعقيد ذلك إنها على قدر ما تطلبه من كشف عن ثوابتها و مركزاتها ، تتطلب كذلك تتبعنا حثيثا لحركة مساراتها في تحولاتها ومتغيراتها الفكرية و الجمالية.

و لذلك في أن المتتبع للبدليات النقدية عند عبد الملك مرتاض يدرك أن هذه المرحلة التأسيسية كانت محكمة بضالفة النقد العربي ، و بالإشكالات والفضائل الفكرية التي طرحها عصر النهضة في ظل مرحلة تاريخية تميزت على صعيد الفكر بلبات المعارف وتطوير العلوم و المناهج؛ ثم تنامي حركة التجديد في النقد العربي يقول عبد الملك في معرض حديثه عن القصة العربية القديمة ((إن موضوع هذا الكتاب جديد و جنته تأتي إليه في أن أحد لم يتناول على النحو الدراسي المفصل من قبل ولعل جنته تأتي إليه أيضا في أن بعض المستشرقين زعموا أن العربية لم تعرف القصة في خلال أطوار أدبها كما لم تعرف القصة الحقة في خلال أطوار تفكير أهلها))⁽¹⁾ . ولقد كان المنهج النقدي ركيزة هامة لتطور الحس النقدي و المنهجي عند عبد الملك مرتاض الذي سرعان ما أصلى لمنهجه إطارا واسعا اختلف له من تفكير الحدالة و من المنجزات المعرفية التي كانت تسخر له الأدوات والمفاهيم و المناهج التي تتلاءم مع المطلوب التخصصي المعالج دون أن تشكل لديه سلطة منهجية .

وظل المنهج عند عبد الملك مرتاض أمينا لهذا التوافق بين قراءة تتلمس مصدرها في النقد العربي القديم و قراءة أخرى تركز على كثير من الأخطاء والأثر الفكرية ذات التوجهات الحديثة . و ربما كان عبد الملك ، ناض قد إلى المنهج البنوي الذي شكل في دراساته الأولى أحد المرتكزات الهامة في تمثل النظرية النقدية عند العرب دون أن تظهر خضوعه للنقد المطلق للمرجعية التي ولقت وراء انتشار هذا المنهج وإدعائه عند العرب ومن ثم كان اعتداده على هذا المنهج يقوم في الأساس على ما يميزه من طابع علمي وموضوعي يحفل بالغاية العلمية والوضوح و يبتعد بالمنهج عن الأحكام الاعتباطية و الإطباعية التي عرفها النقد العربي القديم .

¹ - أ. فرعون بخالد - قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة سيدي بلعباس - الجزائر.

أسرار النقدي والإبداعي عند عبد الملك مرتاض أ. فرعون بخالد

ولذلك نجد يقول : ((محال أن ندرس لصا أدبيا شعبيا كان أم نصيحيا دراسة (علمية *) موضوعية دون أن نأخذ إلى مثل هذه المناهج الحديثة لتبينها فيه قلم بعد النقد أحكاما اعتباطية الطابعية و لا نظرية تقوم على سرد مصطلحات جاهزة ... و إنما أصبح النقد عشا ذا أصول و قواعد لمحاولة فهم الألب و تكويمه بموضوعية))⁽³⁾.

ولم يكن مسار عبد الملك النقدي في حركته و تحوله ليُفك عن منجزات النبوية و آلياتها التحليلية المعروفة بل أخذ هذا الفكر يفتح على سعة المناهج وتعددها بعد تراجع الفكر البيوي وفتح النقد على المناهج القرآنية التي تجاوز سلطة القراءة و النص .

وفي سياق هذا التحول يقول عبد الملك مرتاض ((أقلا لا ينبغي التفكير في سعي جديد ينتهز دونما حيل ولا مكابرة على الإفادة من كل التجارب النقدية السابقة دون التسليم بأن التركيب سيكون هو المعنى النقدي النهائي .

إن التعددية المنهجية أصبحت تشجع الآن في بعض المدارس النقدية العربية . ونرى أن لا صرح في التهوش بتجارب جديدة تمضي في هذا السبيل ، بعد التهمة التي مني بها النقد من جزاء إيتلاعه المذهب تنو الآخر))⁽⁴⁾.

إن هذه القراءة المفتوحة و المتعددة للنص تكشف عن خصوصية المنهج النقدي عند عبد الملك مرتاض و هي طاقة خلاقة محكمة بروح الفكر و هاجس المتعة التي لتطبيقات القراءة الإبداعية و من أجل ذلك لم تكن الأدوات التحليلية ذات طبيعة ثابتة في خطابه بل كانت تتويعا متجددا على آليات مختلفة و على تنوعات إجرائية تختلف باختلاف التوضيحات المرجعية و المعرفية ، ومن هنا كان ((و كثره في كل عودة يحمل الأداة بعدا إجرائيا جديدا أو يكسبها محاولة معرفية تعزرها وتعليقها لثقافتها النقدي))⁽⁵⁾.

لقد كان النقد في سياق هذا التجريب النقدي ، يحرص على الإحاطة المتأنية بالنصوص لمنحها قدرا من الثقة و التركيز و الإنصاف . وقد ظل هذا التوجه القرآني يفر بقصور المنهج الواحد في تحديد مستويات النص ودلالاته ومن ثم كان النقد في سعي مستمر لاستثمار المناهج المتلفة و الابتعاد بها عن روح التعصب ثم دمج آلياتها و أدواتها الإجرائية بما يلائم القراءة المجدية .

و ضمن هذا المنحى ، يمكن للمناهج ((أن تقترب ما أمكن من الكمال دون الترويج بتعصب الاتجاه الإيديولوجي المعين خصوصا في عهد جئحت فيه الإيديولوجيات إلى الأقول و الذبول بعد عطفان و توهج))⁽⁶⁾. أن تلبي الإقناع عند الناقد بحتمية تدخل المناهج و تضارفا في جهود التلق جعته يقول أيضا بضرورة القراءة المتجددة و المفتوحة التي تحرر النقد من النظرة الميكانيكية « من التوجه الأحادي في القراءة و من ثم كان هذا الفكر الذي يبحث و يتجدد ويتجاوز .

و من أجل ذلك كان عبد الملك مرتاض ينصير للقراءة المتعددة تنظيرا وتطبيقا على نحو ما نـ . في قراءته لقصيدة ((أشجان يمانية))⁽⁷⁾ لعيد العزيز المفلح ينحو المنهج البيوي في كتاب (بنية الخطاب الشعري))⁽⁸⁾ و قراءة سيمونية في كتاب شعرية القصيد ، قصيدة القراءة ، تحليل مركب القصيدة أشجان يمانية . لقد كان هذا التحول يجسد أصالة الناقد وسعيه المستمر لتطوير أدواته المنهجية و تكوين رؤية نقدية صليقة تتنوع بتنوع أشكال الكتابة التي مارسها .

لا يمكن من خلال المعالجة الشاملة لمسار الكتابة عند عبد الملك مرتاض أن نضعه داخل جهاز مفهومي للنقد أو أن نخضعه إلى مدرسة نقدية بعينها ، وهو الذي ظل دائما متمسكا بالاحتراف من الوقوع تحت

المبار النقدي والإبداعي عند عبد الملك مرتاض..... أ. فرعون بخالد

أي سلطة منهجية أو مفهومية، وقد حطه علته الرزين والمتمرس أن يائل في مراجعة مستمرة للمناهج النقدية التي يعتمد عليها، ويعني ذلك أن للنص المقروء، لا يمكن أن يغطي بأسراره ومكامله من خلال قراءة واحدة. إن هذه الاستحالة منسجمة بالنقد (ومن أجل ذلك تميل الاتجاهات المعاصرة إلى التركيب المنهجي لذي قراءة نصها مع محاولة تجنب التركيبات المنهجية حتى لا يقع السقوط في التلقيفية⁽⁹⁾) فالتنص في هذا المنظور ليس واقعا ثابا بل هو يتغير بتغير الظروف والمحطات التاريخية لإنتاجه وتلقيه من أجل ذلك كان عبد الملك مرتاض يرفض القراءة الأحادية المحدودة ويصطنع القراءة المركبة التي تنبع المستويات المتعددة للنص، ويسرى ((إن التركيب يبين المناهج كتركيب بين البنيوية والاجتماعية التي نجلنا منها أطلق عليه "البنيوية التكوينية..." و بإمكان التركيب بين الشكلانية الروسية والأنسنة الديسوسيرية التتبع نجلنا لورا هو البنيوية، و كالتحوية والميتولوجيا والفلكلور والأنسنة العامة التي ولدت شيئا اسمه السيميائية))⁽¹⁰⁾. و التحول كما يكشف عند عبد الملك مرتاض، هو حصيلته تجارب معرفية عرفها النقد كما عرفتها النصوص خارج منطق الأيديولوجيات وصاغها التفكير من أجل أحداث رؤية منهجية تغاير وتجاوز الأطر والمفاهيم النقدية القديمة.

و ربما كان الأمر الذي يجب التأكيد عليه هو أن النقد، قل على امتداد الدراسات والمقاربات التي خاضها حول النصوص الأدبية مقربا و رافضا للشكليات النقدية بسبب إغلاقها وضيق قدراتها الإجرائية، ولهذا كان يرى دائما أن القراءة الحقيقية مشروطة بالسماح للإبداع الذي يستجيب لطغلات النص وكوامنه فهذه الميزة هي التي تمنح القراءة شروطينها وتحقق لها طابع المتعة والاكتشاف، كما تمد النص المدروس بقاعدية إمكانيةه لأن يظل باستمرار قابلا للتأويل دون أن يلفظ جوهره الأصلي.

و هذا الملحن من القراءة، هو الذي جعل من كتابة عبد الملك مرتاض قاعدية إبداعية لها هزائرها على تكفي النصوص وأحداث المتعة الجمالية، ((لأنها في نشرها خارج الحدود الموضوعية للنص، وغوصها في أغوار الأثر، لا تأمن متابعة القارئ لها، فتعتمد إغراء بوجود عوالم دلالة و رمزية ساحرة و راء تتكوى لتوسل حينما الشرح والتفسير لتدليل الصعاب وتركيب التنسيق الشعري المبدع أحيانا أخرى، لا تترك في سيرها ذلك مدعشا، أو معجبا (لا سألته بين يديها ووسعت حدود المجال التنصي إلى آفاق خيالية دون أن تفلح الحيل الحلي الذي يشدها إلى النص))⁽¹¹⁾، إن القراءة على هذا النحو تغدو إضافة فكرية وجمالية على ما تزخر به النصوص من دلالات مختلفة.

وإذا كان التحليل الأدبي قد شكّل عند الناقد البداية المهمة لدراسة النص في الأدب العربي، بالشكل الذي كان يجعل منه عملية إجرائية قائمة في الأساس على فك عناصر النص لاكتشاف خصائصها الفنية وطبيعتها الشعرية، فإن النقد يمنح فكرة التحليل طبيعتها الخاصة في معرض. تميزه بين هذا التحليل والنقد، فإذا كان النقد يعني عنده ذلك الفعل الذي يستند في ممارسة وتطبيقه إلى جملة من المعارف الإنسانية الكبرى مثل التاريخ، فالتنقد و على الرغم من اعتماده على شكل محدد من هذه الجوانب ((يقف جهده على عمل إبداعي واحد يرصده بالدراسة الأدبية بمستوياتها المختلفة داخل المذهب الفني الواحد مستخدما إجراءات فنية وتلقية ومعرفية جديدة مثل التأويل (HERMENEUTIQUE). و السيميائية (La sémiotique)، وعلم الدلالة (La sémantique) و كل ما يبحث في نظام العلاقات ومستويات التسج الأسلوبية و خصائص اللعبة اللغوية، ليهتدي في آخر الأمر إلى معرفة ما في النص الأدبي من ظاهرة مهيمنة لغوية ونسجيا وجماليا⁽¹²⁾.

ولا يتحقق إقتضال هذا التحديد عند النقاد إلا من خلال قراءة إبداعية مفتوحة تحيط بمكونات النص الأدبي ، و تألّس عوالمه وتخضعه جمالياً إلى أفكارها الإبداعية ، هكذا يصبح التحليل ((هو رصد نص أدبي واحد بعينه و قراءته قراءة مجهرية ، تحل فيها الدقيق و تكبر عيره الصغير و تتضمّن من حوله الضئيل))⁽¹²⁾ .

ولقد قلّ هذا الطابع من التحليل يتحرك ضمن مساق منهجي يتقاطع على نحو مهم مع حقل " الدراسة" في أوسع معانيها الإجرائية . ومن هنا، جعل الناقد لفظة دراسة في أوسع معانيها ، قائمة على رأس العنوان الفرعي لمربع دراسات" شكّلت جهداً نقدياً معبراً في مسار النقدي .

و بالنظر الذي تحتكم هذه الدراسات في ذوق الناقد والطابعات الشخصية ، فهي تستعين بحقول معرفية تمدها بسعة الإجراء و فاعليته، وتوسع لها آفاق الرؤية ، فهي من هذه الناحية ((تركيب يتجاوز حدود المنهج الواحد إلى مبدأ الاستفادة الكلية مما يقدم الغرض الأخير للعمل الأدبي))⁽¹³⁾ .

و سواء أكان منحى الدراسة بنحو منحى الجمع ، أم طابع للتسريح فإن الملاحظ لهذا المفهوم لم يكن ليشكل الإطار الثابت للنقد عند عبد الملك مرتاض ، ذلك إنه شعر بصلاية مصطلح الدراسة و جفافه ، ومن ثم حاول أن يعطي هذا النشاط النقدي ، ويعطيه سعة و امتداده مستفيداً من تطور ميلادين النظرية النقدية الحديثة، الأمر الذي جعله يعدل عن ذلك إلى التحليل السيميائي، و السيميائي التفكير ، لما يوفره هذا المنهج من إمكانية التحليل ، و في ذلك يقول عبد الملك مرتاض ((أن مثل هذا التفكير للمادة النصية أضفى أمراً خطيراً بقياس إلى كل دراسة تشرب إلى الكشف عن طوابع النص ، و تحديد البنى التي أعاد فيها ، و المواد التي تبني منها))⁽¹⁴⁾ .

و في السياق نفسه ، يجب الإشارة بأن المنهج السيميائي في تعدد إجراءاته و مفاهيمه ، لم يستقم عند النقاد إلا بعد نضج مناهجه و تنوع سياقات المعرفة النصية، وفي هذا المعنى شكّلت السيميائية القراءة الفاعلية المنتقاة بقوة الإجراء على التعدد اللاتهامي للمعنى الأدبي في تكوّمه و احتمالاته ، ويعني ذلك أن الفعل السيميائي يحرر النص من انغلاقه البنيوي و يحول تركيباته الدلالية و الرمزية إلى إشارات و علامات .

و بالرغم من أن عبد الملك مرتاض ، لا يقدم نشوء السيميائيات في الثقافة الغربية و انبثاقها الكبير من داخل هذا السياق الفكري الذي حققت فيه مشروعيتها العلمية على يد كل من "دي سوسير" ، و"شارل بيرس" الذين يهيّين بدورهما على علاقة السيميائيات باللسانيات و المنطق و على الرغم كذلك من أنه رأى أن هذا المنهج قد عرف مزيداً من التطور الطبيعي الذي صنع منه مشروعاً متنامياً الاتجاهات في مستوياتها النظرية و التطبيقية داخل دائرة أصبحت تتسع مع مرور الوقت و تتفاعل على نحو إيجابي مع حقول مجاورة كاللسانيات و المنطق و الفلسفة و علم النفس، فإنه يؤكد من جهة أخرى على أصالة القراءة السيميائية في التراث العربي. فقد أشار إلى أن العرب عرفوا السيميائية بوصفها ظاهرة كانوا يتوسّلون بها التعبير و الإدراك و المعرفة العامة ، وهي أمور لاحظها عند الجاحظ و ابن خلدون، وعند سيبويه و ابن الجني و عبد القاهر الجرجاني... وهي ملاحظات مكنته من أن يربط بعض المفاهيم السيميائية بقضايا نقدية عرفها التراث العربي القديم، كصلة للتناص بفسقات الأبيّة.⁽¹⁵⁾

ويظهر سؤال الكتابة عند عبد الملك مرتاض كما كان عند كثير من النقاد و الفلاسفة خاضعاً للتشكيكية الأنطولوجية ((المشكلة الكتابة هي في الأساس تجربة سؤال عويص : ((فهل الكتابة التثاق من صميم الذات ؟ أم هي إبداع متولد من أشدات الغير ؟))⁽¹⁶⁾ .

ولأن الكتابة تستوطن دائماً هذا القضاء الذي لا يقضي إلى حقيقة تبقى دائماً استثنائية متشعبة بالمستحيل، ولكنها لا تترجّح تطلب ما لا يدرك ، و كأنها لا تنفك تتعلق بالتكلسي ، و كأنها ليست شيئاً غير

المار النقدي والإبداعي عند عبد الملك مرتاض..... أ. فرعون بخالد

اللاتسي ، الكتابة إشباع للتضول، و الكتابة استجالية للألمانية الذات ، و غرور الطموح ، و شاطحات الرغبة وارتعاشات الجسد.

إن الكتابة هي هذا الوجود الممتلئ والمعيق لصفة بالتجربة الإنسانية ، ومن لم يكن غريبا أن نجد هذه الكتابة التي لا تكلف عن التدقيق عند عبد الملك مرتاض، تأخذ هذا الجهد الكبير من التنظيم والصرامة ، غير أنها في جميع الحالات، تنقل الكتابة ملدقة ، و مشحونة بقوة هاجسيا، و بالترغية الفنية التي تجعلها مفتوحة دائما على أسئلة الفكر وعلى الحوار المثير و الجاد مع التراث ومنجزات الثقافة الإنسانية . فهي بقدر ما نطل حضورا يتفاعل و يتغلل بمفاهيم ومغولات الفكر العربي، تبقى كتابة ترتدح فيها لغة العصر الجاهلي مع لغة الجاحظ ، وتكتلي فيها لغة المقامات ، بلغة الفلاسفة .

و لا شك أن هذا المدخل على طرائفه يفسد هذه الصلة الحميمة مع التراث بوصفه مرجعا لهذا النمط من الكتابة حيث تتناسق الصورة الفنية مع ألعاطف التطبيق و السرد ، و تتلامح على نحو مدهش الصياغة اللغوية مع طبيعة الأوساع والمواقف.

الإحالات:

- 1- عبد الملك مرتاض: القصة في الأدب العربي القديم، نشر لشركة الجزائرية ، الجزائر 1968 ص 6
- 2 - عبد الملك مرتاض : الكتابة التحليلية بين التراث و الحداثة ، المجلة العربية الملتقى العربية للتربية و الثقافة ع 24 - 1993 ص 170.
- 3 - عبد الملك مرتاض : تحليل الخطاب السردى (معالجة تفكيكية سيميائية سردية لرواية زقاق المسك) ديوان المطبوعات الجامعية د.م.ج ، الجزائر 1995، ص 6
- 4 - حبيب موسى: فعل القراءة : التشاء و التحول إيقارية تطبيقية في قراءة لقراءة عند عبد الملك مرتاض دار الغرب بهران -الجزائر ط 2001-2002 ص 26
- 5 - عبد الملك مرتاض ، التحول السيميائي للخطاب الشعري ، مجلة علامات ، النادي الثقافي جدة ج 5-2 سبتمبر 1992، ص 150.
- 6 - ينظر عبد الملك مرتاض شعرية القصيدة ، قصيدة القراءة ، تحليل مركب * الشوان بساتية دار للكتاب العربي ، بيروت 1994.
- 7 - ينظر عبد الملك مرتاض ، بنية الخطاب الشعري ، دار الحداثة ، بيروت 1986 و د.م.ج ، الجزائر 1991
- 8 - عبد الملك مرتاض : التحول السيميائي للخطاب الشعري ، مجلة علامات ، ص 144-145.
- 9 - المرجع نفسه ص 151
- 10 - حبيب موسى ، فعل القراءة -تشاء و التحول ص 98
- 11 - عبد الملك مرتاض ، في نظرية النقد، ص 66
- 12 - عبد الملك مرتاض : المرجع السابق ص 67
- 13 - حبيب موسى : فعل القراءة ، التشاء و التحول ، ص 48.
- 14 - عبد الملك مرتاض : تحليل الخطاب السردى ص 9
- 15 - ينظر عبد الملك مرتاض ، لقراءة المدفأة الأدبية و نظرية نقاش مجلة علامات في النقد الأدبي ، النادي الأدبي الثقافي ، جدة - السعودية ، ع 1-1999 ، ص 92-96
- 16 - عبد الملك مرتاض ، الكتابة أم حوار للتصوير ، الموقف الأدبي ، تشرين الأول ، اتحاد الكتاب العرب دمشق 1998، ص 21.